امبراطوريته المالية بهدف منافسة اليهود وضرب نفوذهم المالي ، كان هو الذي دخل شريكا مع عدد من أشهر الرأسماليين اليهود في زمنه ، ومنهم آل هيرش وروتشيلد وبشوفسهايم ! ولكن تحالف الاثرياء هذا لم يدم طويلا . ففي عام ١٨٧٠ ووسط ظروف غامضة لم تفسر تماما حتى اليوم ، انهارت الامبراطورية المالية الكبرى التي أسسها دومونسو ، وهرب الى البرازيل ، تاركا المحكمة تحكم عليه غيابيا بالسجن لمدة خمسة عشر عاما . ثم مات في روما عام ١٩٠٥ ، أي بعد مرور ٣٥ عاما على تلك الفضيحة المالية التي لا يضاهيها في الشهرة الا انهيار أمبراطورية ملك الثقاب السويدي كرويغر واعلان افلاسه في قرننا الحالي .

ما هي الاسرار الكامنة في التحالف المالي بين الخصمين اللدودين : اليهودي والكاثوليكي ؟ وهل كان هيرش وصحبه وراء سقوط دومونسو ؟ في الواقع تشير الدلائل الى ان هيرش كان أكبر مستفيد من تصفية امبراطورية دومونسو المالية ، لا سيما وان الشخص الذي أشرف على عملية التصفية كان الدبلوماسي البريطاني اليهودي السير هنري دراموند وولف الذي ربطته علاقة وثيقة بهيرش . ثم ان هيرش « ورث » عن دومونسو المشروع الكبير الذي سيدخله التاريخ كأحد اكبر المقاولين في القرن التاسع عشر ، وهذا المشروع هو انشاء شبكة خطوط حديدية في الجزء الاوروبي من الدولة العثمانية . فهذا المشروع الضخم يشكل البداية الفعلية لاسطورة هيرش : هيرش التركي ، كما أسماه معاصروه بسبب توليه هذا المشروع الذي استغرق انشاؤه عشرين سنة ، فاحت اثناءها رائحة الفضائح والتصقت بأسماء بعض من أبرز رجالات اوروبا والدولة العثمانية .

ففي ٧ تشرين الاول عام ١٨٦٩ صدر الفرمان التاريخي في الاستانة بمنح البارون موريس ده هيرش امتياز انشاء وتشغيل شبكة من الخطوط الحديدية في البلقان ، وذلك بعد ان كان هيرش قد وزع الرشاوي الضخمة على كبار المسؤولين الاتراك لنيل الامتياز . وليس هنا المجال للاستفاضة في الحديث عن هذا المشروع الذي لم تلتصق الفضائح بمشروع آخر بقدر ما التصقت به . ولذا نكتفي بالقاء نظرة سريعة عليه من خلال كتابات المؤرخين ، وبينهم الاسرائيلي غرونفالد ، مؤلف سيرة هيرش . فحتى غرونفالد المتعاطف مع هيرش لا ينفي التجاء البارون الى الاساليب الملتوية في أعماله . ولكنه يخفف من أثر الاتهامات الموجهة الى هيرش ، ولا سيما من قبل المؤرخ هالغارتن الذي تحدث في كتابه عن «الامبريالية» الصادر في ١٩١٤ عن عناصر « المكر والخداع والاكراه والسرقة التي احاطت بالمشروع » . فغرونفالد ينفي عن هيرش صفة الخداع ، قائلا انه عندما حصل على الامتياز لم يتوقع حدوث (ما حدث فعلا) من دسائس ومؤامرات وانغماس في المسألة الشرقية . ولكن هل كان هيرش بهذه السذاجة حقا ؟ « فالمسألة الشرقية » هي العبارة التي اعتاد سياسيو اوروبا استعمالها آنذاك عند الاشارة الى رجل اوروبا المريض الذي ينتظر الجميع وفاته بفارغ الصبر ليتقاسموا تركته ، ولذا ليس من المعقول ابدا الزعم بأن هيرش باشر مشروعه بقلب طاهر وذهن بريء ، بل ان جوان هاسليب ، المؤلفة البريطانية المعاصرة ذكرت بوضوح ، في سياق سيرتها عن السلطان عبد الحميد ، ان « هيرش حصل على الامتياز عن طريق توزيع البقشيش في الاوساط المناسبة » وهذه الرشاوى لم تكن بالسر الخفي ، فقد اعترف الصدر الاعظم بأن الرشوة التي قبضها بلغت ٤٠٠ الف ليرة عثمانية ، وقس على ذلك . ثم ان المشروع تم تنفيذه بأسلوب يتنافى مع مصالح الدولة العثمانية . فبسبب علاقة هيرش الوثيقة بأمير ويلز ، ولي عهد بريطانيا (وهو الذي اعتلى العرش بعد اعتزال أمه الملكة فكتوريا) راعى البارون الاعتبارات السياسية والاستراتيجية البريطانية في طريقة